مُلْحَق

النّصوص القصصيَّة المختارة

من قصص الدّكتور طه وادي

صرخة في غرفة زرقاء

في منتصف ليلة غاب فيها القمر.. من نافذة مفتوحة –أخذت تتأمل الأفق البعيد. جسدها مسجى على السرير.. مومياء أميرة فرعونية. الظلام .. سكون الليل.. حرارة الجو.. الحزن.. كل هذا جعلها تحس بالاختناق. مرارة لاذعة تتحرك في فمها، وتتوقف عند منطقة اللِّوَز. رغبة في الغثيان سيطرت عليها. حاولت أن تنهض من مكانها، فلم تستطع. جيوش من النمل تنهض في منطقة المخ، وتشل الأعصاب. يقظانة هي أم نائمة.. تبصر أم لا تبصر.. حية أم ميتة..؟!

من مرقدها أحست أن الكون أمسى ظلمات بعضها فوق بعض. اغتال الظلام كل الأضواء. الكون تحول إلى وحش كاسر.. يده تمتد في هدوء للفتك بها. اليد تمتد، وتلتف حول رقبتها المرمرية. وهي تلميذة في المرحلة الثانوية كانت فتاة أحلام كل شباب الحي، حتى زميلاتها كن يحسدنها على جمالها وكمالها: لمياء ليست فتاة عادية.. أنت أميرة من سلالة نفرتيتي...! .

السرير يتأرجح من تحتها مثل سفينة ضالة في بحر لُجّى عاصف.

الريح تشتد، والسفينة تهتز. ارتطمت السفينة بصخرة. الصخرة الجبلية خرقت قاع السفينة الجميلة. وحدها تجدف بمجداف خشبي هزيل. الرغبة في الحياة جعلتها تجدف.. تجدف.. أملاً في أن تنقذ قاربها من الغرق. الريح تزغرد، والموج يزبد، والظلام يعربد. واحد من القراصنة – ذوي اللحى القذرة– بدا لها من بعيد. حاول أن .. اليد تتحسس رقبتها.. تتحرك في الظلام. اليد لها أظافر مسنونة. الرغبة في الغثيان ما زالت مسيطرة عليها. حاولت أن تفتح عينيها، فلم تقدر.. حتى لو استطاعت .. ماذا ترى عيون حوراء في ليلة ظلماء؟ يا ملائكة السماء.. خذوني.. خذوني.. أنقذوني.. أنقذوني.. فقدت الأمل في عالم البشر. كابوس مخيف.. يد القرصان تحولت من رقبتها المرمرية إلى الصدر الضامر. من عادتها أن تنام بكامل ملابسها. اليد ذات الأظافر.. أنياب الغول تمزق قميص نومها، بدرجة كادت تسمع فيها الصوت. صوت التمزيق.. حشرجة طلوع الروح من الجسد. لمياء يا أختي، الفقراء أمثالنا حين يرغبون في الزواج، لا يبحثون عن الحب.. ولكن عن الستر. شمعة بدت وسط الظلام، تضئ.. وتحترق.. تضئ .. وتحترق.. الكابوس – لا يزال – ينسج خيوطه. ارتعشت.. حاولت أن تبعد يد القرصان، لكنه –عنيداً – يحاول أن يعريها. أخذت تستغيث.. دون أن يخرج الصوت من صدرها. لابد أن تفعل شيئاً. الموت أرحم.. لن تذل جمالها.. لن تفرط في عفافها.

ثلاث سنوات.. وهي على هذه الحالة. الأهل باعوها في سوق

النخاسة بيعة وكس.. رغم أن ذلك كان بعقد سجله رجل، يلبس عمامة، ويحمل حقيقة ممزقة.. وشهد على العقد رجلان من أقاربها – رغم ذلك.. فهي توقن أن العقد مزور.. مزور.. وتؤمن أن الزواج باطل.. باطل. اخبطي رأسك في الحائط.. حتى لو رأيت حلمة أذنك.. لن أطلق.. لن أطلق. أنا رجل، العصمة في يدي.. والشرع في جانبي. يا الله.. يا رب السماء.. الكافر بكل شيء .. يهدد بكل شيء، يهدد باسم الشريعة..!! يا الله .. يا رب السماء.. كلمة حق، يُراد بها باطل.. باطل..!!.

تحول الكابوس المتخيل.. على واقع مرعب، قفز على صدرها بوحشية. في الحرب حين يظفر المقاتل بعدوه يطرحه أرضاً، ويبرك فوق جسده، ويشل حركته، حتى يقدر على قتله والانتقام منه. الحرب.. حرب.. إما أن تقتل أو تُقتل. صوت تمزيق الثوب يرتفع من جديد. السفينة تهتز.. البحر اللجّي مضطرب الأمواج، والقرصان يصيح: الحقوا بها.. حَطِّموا قاربها.. لابد.. لابد أن تخضع.. وتركع..!! الأميرة صارت أسيرة.. لكنها مصّرة على أن تحترم إنسانيتها. القرصان يستخدم يديه ورجليه، حتى يوقعها في قبضته.. ويصيح: أنت عاصية.. كافرة .. الله غير راض عنك.. والملائكة تلعنك. يا الله.. هل أنزلت شريعتك لتكون سوط عذاب للبشر؟! تؤمن أن الله معها. الله محبة.. ولا يرضى بأن يُغلق باب على.. اثنين، لا يجمع بينهما حب ومودة، ولا يكون بينهما سكن ورحمة.

ما زالت النافذة مفتوحة.. والليلة مظلمة.. والحرارة مرتفعة..

والرطوبة خانقة. حاولت... حاولتْ.. حتى استطاعت أن تهـرب مـن بـين مخالب القرصان.. قفزت في الظلام.. فارتطمت رأسها بالأرض. الـدم ينـزف من فهمها وفتحتي أنفها. اختلطت الدموع بالدماء. الوجـه الجميـل.. وجـه حفيدة نفرتيتي – صار ساحة معركة.. اعتدى فيها ذئب على غزال. تحطم القارب، وانكسـرت المجـاديف.. لكـن الأمـيرة الأسـيرة، لا تـزال في نقـاء الملائكة وطهارة بنات الحور. نهض من السرير، يهذي بكلمات لم تسمعها .. ويهدد بعبارات لم تَعِها. بعد مـدة لا تعـرف مقدارها .. تحاملـت علـى نفسها لكي تذهب إلى الحمام، وتغسـل جراحهـا، وتمسح دموعهـا. حـين أضاءت مفتاح النور، لفت انتباهها صورة في برواز ذهبي لاثـنين في ملابـس الزفاف. صـورة الرجـل داخـل الإطـار.. لهـا نفـس هيئـة القرصـان، الـذي طاردها في الظلام.. وحطم زورقها. قرأت كثيراً عن وقائع الاغتصـاب، الـتي تحدث في هذا الزمن الرديء. لكن مشاهد الاغتصاب، التي تتعرض لها منـذ ثلاث سنوات، لا تظن أنها حدثت لأنثى يتيمة شهيدة من قبل..!!

حين أغلقت على نفسها الباب.. أحست أن هواء حجرة الحمام، أكثر نقاء وصفاء من هواء الحجرة، التي خرجت منها. فتحت حنفية المياه، لكي تغسل وجهها الجميل.. المشوه بالدم والدموع. عاودتها الرغبة في الغثيان.. لكن الغثيان هذه المرة كان حقيقة. حاولت أن تفرغ بعض السوائل المُرّة، التي تجمعت في أحشائها.. بينما تحاول إخراج العصارة المرة من جوفها المنقبض، كانت مياه الصنبور تتدفق ... تتدفق بغزارة...(*).

---

* من مجموعة "صرخة في غرفة زرقاء" مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م.

(*) الأربعاء ١٩٩٤/١٠/١٢

كـوما

نام الزوج، وهي تحاول أن تتناوم. رغبت في أن تضـمه إلى صـدرها، لكنها حبست الأشواق في قلبها. تطـاول الليـل كأنمـا لا نهـار بعـده. الـبرد اشتد.. والخوف امتد.. والدم تجمد في العروق. الظلام يحتوي غرفة النوم في ليلة من ليالي الشـتاء الحزينـة. لـو أن الأولاد هنـا لـذهبت إلى حجـرتهم، لكنهم ذهبوا إلى بيت الجد والجدة، ليقضوا معهما بعض أيام إجـازة نصـف السنة. تمنت أن تعود أيام زمان.. أيام بيت العز..!! بـدت المسافة بعيـدة بين الماضي والحاضر. تنقلب ذات اليمين وذات الشمال. لا فائـدة.. الرجـل مستغرق في النوم مثل أصحاب الكهف. منـذ سـنوات – لا تعـرف مـداها – كان الـزوج ينتهـز فرصـة نـوم العيـال، حتـى يقضـي معهـا ليلـة سـعيدة. أحياناً.. يخيل لها أنه لم يعد الرجل، الـذي كانـت تعرفـه. شـيء مـا شـل حركته وأضعف رؤيته. تمنت أن تضم القريب البعيد إلى صدرها.. أن تحس الـدفء وتشـعر بالأمـان. الإنسـان يكـون ضـعيفاً حـين يشـعر بحاجتـه إلى الآخر، وهو أشد حسرة وألماً حين يرغب فلا يجد...!!

انتفضت فجأة. البـاب يفـتح في هـدوء ويغلـق. مـا حـدث حقيقـة أم

وهم..؟! الخوف والبرد والرجل النائم سر أزمتها. استعاذت بالله العظيم من وسوسة الشيطان الرجيم. دفنت رأسها تحت المخدة. عطت كل مكان في جسدها بالبطانية و اللحاف، ثنت رجليها ويديها.. لكي تدفئ الأجزاء بعضها بعضاً. بدأت تعد من واحد إلى مئة. حين وصلت إلى رقم (٦٧) .. أحست حركة غير عادية في الصالة. الحركة هذه المرة ليست وهماً. هناك شخص أو أكثر يحرك مائدة الطعام، حتى يستطيع أن يفتح دولاب الصيني والبوفيه بسهولة. انتفضت جالسة. أخذت تهز زوجها عنتر بقوة : اصح.. قم يا رجل.

شَدَّ الغطاء حول رأسه قائلاً: اتهدّي ونامي.

- حرامي .. لا ... حرامية.

- بَطّلي تخاريف يا امرأة.. اعقلي.

بين الخوف والبرد – أدركت أن هناك أمراً غير عادي. أرهفت السمع مرة .. ومرة.. ومرة.. ليس الأمر وهماً. أكيد.. في البيت لصوص. تسكن في هذا البيت منذ فترة طويلة، ولم يحدث أن شعرت بما تشعر به هذه الليلة. باتت وحدها كثيراً دون زوج أو ولد، لكنها لم تكن تخشى شيئاً. منذ مدة ماتت صاحبة البيت، فاستغنى الورثة عن البواب، وصار باب

العمارة مفتوحاً في الليل والنهار. تحوّل البيت إلى سوق بعد أن أخذ الورثة يكثرون من تأجير الشقق المفروشة لمن هبّ ودبّ.

بالقرب من البيت ظهر – فجأة – دكان سمسار عمومي، مستعد لشراء وبيع وتأجير أي شيء.. أي شيء، حتى لو ... المهم الفلوس. كله (بيزنس)... (Business) كما يقول. هذا المحل كان شقة عامرة، تسكن فيه عائلة طيبة.

دكان المعلم فواز يعقوب – صار وكراً لكل شيء.. كل شيء.. وهو الآن "شيخ منسر"، يقبض من البائع والمشتري.. ومن المؤجر والمستأجر.. بل إنه – أحياناً – لبعض السوّاح النساء والخمور، ثم يبلغ الشرطة.

منذ ماتت صاحبة البيت، وفتحت وكالة المعلم فواز يعقوب أصبح كل شيء جائزاً..!! ازدادت الحركة في الخارج، وارتفع صوت الهمس. مشت على أطراف قديمها. أحكمت ربط حزام روب الكستور. وضعت أذنها اليسرى مكان المفتاح، الذي ضاع منذ وقت بعيد. حين أيقنت أن الحركة حقيقة، أغلقت الترباس بخفة وهدوء. تعجبت لما حدث. اللصوص –أيام زمان– كانوا يسرقون، لأن أصحاب البيت ليسوا فيه. لكن لصوص هذا العصر يسرقون البيوت وأهلها حاضرون. قفزت من الأرض إلى السرير، واستقرت بجوار الزوج النائم. لم تكن قادرة على الكلام. أخذت تهزه بقوة،

ففزع قائلاً: مالك يا امرأة.. أكيد ركبكِ عفريت الليلة.

وضعت يدها- في الظلام- على فمه. أحس أطرافها باردة، بينما تمتمت هامسة بأنات مذبوح: حرا... حرامية...!!

- ما .. ما هذا التخريف؟

اصطكت أسنانها، وهي تتمتم في ضعف وخوف: اسْـ .. اسمع.. وس.. سو.. سوف.. تت.. تتأ.. تتأ .. تتأكد..

حاول عنتر أن يصغى لما يحدث خارج الغرفة. أخيراً.. أدرك أن زوجته على حق. الآن تذكر أنه .. منذ سنة وسامية تطلب كالوناً جديداً وترباساً قوياً، حتى يحكموا إغلاق الباب. تذكر مثلاً كانت تردده أمه — رحمها الله : "الباب المغلق يمنع القضاء المستعجل". الحركة المضطربة في الصالة.. تزداد وضوحاً. اللصوص.. يمشون .. يتحركون... يتكلمون.. يسرقون.. شعر بالعجز والغيظ في آنٍ واحد: ماذا نفعل؟

لم يستطع أن يقول أو يفعل شيئاً.. بل لم يعد يعرف كيف يفكر؟! معاني الخيبة والحسرة شلت قدراته. هزَّته مرة ومرة، وهي تردد هامسة: الوقت ليس في صالحنا.

توقف الزمان.. وتجمد الإنسان. لم تكن زوجته مستريحة لردّ فعله.

يستحيل أن تتركهم يسرقون بيتهم بهذه الطريقة. كل شيء في متاع البيت، لـه ذكريـات عزيـزة حتـى ملعقـة الشـاي. بسـرعة خاطفـة ودون تفكـير — حركت مفتاح النور، فتحت الباب، اندفعت نحو الصالة، وقفت بيـنهم. لم يتحركوا.. ولم يَبْدُ عليهم أي تعبير عن الخوف. بنظرة سـريعة رأت أنـهـم أحضروا التلفزيون، والفيـديو، والمسجل، والصـيني، والفضـيات، وتمثـال فرعوني قـديم. لصـوص أم تتـار.. هـؤلاء الرجـال الخمسـة؟! صـاحت دون وعي، وشعرها المنكوش يغطي بعـض أجـزاء مـن وجهـهـا المـرتعش: مـاذا تفعلون يا كلاب..؟! .

أظهر واحد منهم مسدساً، والآخر مطواة قـرن غـزال. بينمـا قـال ثالـث يبدو أن زعيم العصابة: لو أنك رجل.. لكان لنـا معـك تصـرف آخـر. صـاح رابع أعور، وضع على عينه الفارغة عصابة سـوداء مـن الجلـد: اخرسـي.. اخرسي يا امرأة..؟

— إذا لم تتركوا المتاع وتغادروا البيت، فسوف أصرخ و..

مسرعاً جرى نحوها الأعور. وضع يده اليسرى على فمها، وغرز خنجراً في نهاية الرقبة. غلى الدم في عـروق عـنتر، الـذي كـان يرقـب الموقـف مـن حجرة النوم. مشى خائفاً يترقب، وتمتم مرتعشاً، والضـوء يعشـي عينيـه: خ... خ... خذ ... خذوا ... أ.. أ.. أي.. ش... شيـ... شيـ شيء.. لـ ...

لكــ... لــ.. لكــ.... لكـن.. اتــ.. اتــ.. اتــ.. اتركـوا ... ز... ز.. زو.. زوجتي.

جاء صوت الزعيم من خلف القناع: أثبت أنك عاقل، وسوف تعود سالمة في الصباح. وإلا..

اقترب منه حامـل المسـدس، وهـو يصـوبه ناحيـة الـرأس: لا نريـد أن نجعل أطفالك يتامى يا عنتر.

لصوص عصر الكمبيوتر.. يعرفون من يسرقون.. وماذا يسرقون؟! .. كله بيزنس. تبادل مع الزوجة نظرات حزن وخـوف وقلـق. تأمـل امرأتـه، وهو يجتر هماً وحسرة. امرأته لو فُك حزامُ روب النوم، لظهرت عريانـة.. كما ولدتها أمها. تلك عادتها – صيفاً وشتاءً– منذ تزوجت. صاح كالملدوغ.

- خذوا أي شيء.. اتركـوا زوجـتي.. أرجـوكم.. أرجــ.. قطـع كلامـه الزعيم في ضيق: لا نحب أن نقول الكلمة أكثر من مرة.. اثبـت أنـك عاقل، وسوف ترى.

أي عقـل.. وأي جنـون.. يـا الله.. يـا ملائكـة.. يـا عفاريـت.. مـاذا أعمل.. يا ناس.. يا هوه؟! بدأ اللصوص يرتّبون كل شيء في هدوء، وحزموا كل الأمتعة التي جمعوها. شد انتباهه ضحك متواصل مـن لـص متعجـرف،

لم يتكلم من قبل: شكراً يا عزيزي.. فقد فتحت باب الحجرة المغلقة، حتى نأخذ الذهب والملابس.. ها.. ها.. هاها.. ولكن أين الذهب؟

خشى أن يعذبوا زوجته أو يعذبوه، فأجاب سريعاً: في الكمودينو.. بجوار الشباك. تساءل الأعور: معك فلوس ؟

- لا.. لا والله...

قال شيخ المنسر: إنه موظف.

مع برودة الخوف مرت اللحظات بطيئة.. ثقيلة.. بينما اللصوص يحملون المتاع. كانت الزوجة غائبة عن الوعي.. الفم مكمم والخنجر في رقبتها. تاه عنتر في الزمان والمكان، لم يعد سوى عينين، تتحركان في ذهول وحسرة. ظن – وبعض الظن خيبة – أنهم سوف يتركون زوجته بعد أن يأخذوا ما يريدون. لكنهم – بهدوء قبيح- جروها معهم، وهم يلوحون بالمسدس والخنجر والمطواة.

قال كبيرهم وهو يغلق الباب: اثبت أنك عاقل، وسوف تعود لك في الصباح. نحن لصوص.. لكننا شرفاء..!!.

سقط الزوج باكياً.. مذهولاً. أخذ ينظر في دهشة وحسرة ذات اليمين وذات الشمال. لا يزال البرد شديداً والليل طويلاً. لم يكن حزيناً على ما

سرقوه.. وإنما الذي يهزه –من الأعماق– منظر زوجته، وهي تتلوى بين يدي اللص، والخنجر مغروس في رقبتها. ظل يبكي.. ويلطم خديه. تحول البيت العامر إلى خرابة موحشة. بينما يبكي.. ويلطم خديه، تراءى طيف أمه يأتي من وراء الغيب، وينظر إليه في أسى وحسرة:

– لا تبكِ مثل النساء على بيتٍ... لم تحافظ عليه محافظة الرجال...! (*)

(*) الجمعة ٢٠ يناير ١٩٩٥. نُشرت في الملحق الأدبي لجريدة الأهرام: يوم الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٩٥، العدد ٣٩٨٢٧

من قصص جمال أبو حمدان

حلم عروة بن الورد

أرتحلُ بين القلبِ والنبضْ

حاملاً في قرابِ السيف، أعتدتي العتيقةَ

وفيها الزهرة الوحيدة التي ذبُلت في برودةِ الفجرْ

ناشراً أحلامي، في مهبِّ الريحِ،

كعباءةٍ مقصبةْ

يكتب عروة بن الورد قصائده على قصاصات صغيرة، يتركها تحت وسادته، ويقبّل زوجته، ويخرج.

وفي ذات صباح، أحس، حين أفاق، بأن للحياة نكهة طازجة وحارة. فنادى زوجته، وقال لها، إنه حلم حلماً غريباً؛ "رأيتني أمشي على صدر الدنيا، وكان صدرها لدنا، فكنت أرى آثار خطواتي تمتد بعيداً، فقلت؛ أقدر أن أرجع دون أن تضيّعني الدروب، فغفوت هادئ البال".

صاحت زوجته بدهشة؛ "حلمك غريب، وإني أحبك يا عروة". وقبلته، فخرج، وجاب طرقات البلدة، وكان ينظر وراءه إلى آثار خطوه فلا

يراها، فعاد كابياً.

هذا الصباح أفاق عروة مبكراً، وأيقظ زوجته، وقال: "حلمت حلماً غريباً". فاستمعت بلهفة؛ "رأيتني أمشي، وكنت كلما خطوت خطوة، أجد عند قدمي قطعة نقد لماعة فألتقطها، وحين أرفع رأسي تلتقط عيناي من الفضاء فقاعة ملونة تتطاير في الجو، حتى ملأت جيوبي بالقطع النقدية.. والفقاعات الملونة".

استمعت زوجته، ثم قالت: "هذا حلم رآه كل أطفال البلدة". ابتأس عروة بن الورد، إذ كان يعتقد أن الحلم عالم خاص، لا يشاركه فيه أحد.

وفيما كانت زوجته تقبله، فَكَّر؛ هناك متسع من العمر أستطيع أن أحلم فيه أحلامي الخاصة.. وخرج.

وقف عروة بن الورد طوال النهار في ساحة تكتظ بعمال المياومة، منتظراً أن يطلبه أحد للعمل.

وفيما كان الناس ينفضون من حوله متفرقين في كل اتجاه، تقدم منه رجال حسنو الهندام، فهشَّ لمرآهم. وحين أحاطوا به سألوه بخشونة: "أأنت عروة بن الورد!" ارتعد عروة، إذ كان يتوقع أن يسألوه عما إذا كان يريد عملاً وقوتاً لهذا النهار، وافترض أنهم لا يعرفون اسمه.

ولم ينتظروا أن يجيب، فاقتاده اثنان، ومشى الآخرون أمامهم.

في مكتب مكتظ بالأثاث والرجال، أُعلم عروة بن الورد أنه ماثل الآن أمام مفتشين ومحققين رسميين، بتهمة تهريب أموال في الحلم.

بُهِتَ، وكان قد أعياه التعب، وأُمر أن يجيب عن الأسئلة واقفاً فامتثل:

قال الرجل الذي يجلس في الصدر: حلمتَ بأنك تجمع من الأرض حيث تسير قطعاً نقدية".

أكد عروة؛ "وفقاعات ملونة من الجو"، فنهره المحقق: "الفقاعات الملونة ليست من اختصاصنا".

وهنا شعر عروة بن الورد بالضِّعَة، ونضبت عزاءاته.. فقال؛ "حلمت بذلك، ولكن الحلم رآه كل الأطفال في البلدة". رد المحقق: "الأطفال تحت السن القانونية، لا نعاقبهم، وننتظرهم حتى يكبروا..".

أعاد عروة بامتثال: "نعم، حلمت بذلك".

قال واحد في الزاوية: "يكتفون بأن يحلموا بالنقود، ليتهربوا من الضريبة". فأضاف آخر: "تلك خديعة لن نسمح باستمرارها".

ثم سُئل عروة عن المبلغ الذي جمعه، فقال؛ "كانت الجيوب مليئة

بالقطع اللماعة والفقاعات الملونة، ولم أعدّها".

وهنا صاح رجل الصدر: "اسمك؟"

قال عروة: "عروة بن الورد".

سؤال: "ماذا تعمل؟"

أجاب عروة: "في الجاهلية كنت فارساً وشاعراً، وأبا للفقراء والصعاليك". وتوقف.

فسأله آخر: "وفي صدر الإسلام"؟

تلجلج عروة في الرد، فسأل رجل الصدر: "والآن؟".

فَرَدَ عروة يديه على سعتهما: "ها أنت ترى.."..

أثناء ذلك أُعدَّ كشف بالضريبة المستحقة، فسلمه رجل الصدر إلى عروة، بعد ختمه. وأنذره بالدفع أو حجز ممتلكاته والحبس، فاصطحبهم إلى بيته للحجز، وكان القهر يغلف نفسه. غير أنهم لم يجدوا في بيته إلاّ قراباً، فيه سيف ضاق نصله عن سعة القراب، مما سمح بوضع زهرة ذابلة فيه.

وكان على الجدار في صدر المكان لجام الحصان، ثم لم يكن بعد هذا

غير شعر زوجته وشامة على خدها، وكل ذلك لا يساوي شيئاً. فأُمر بسجن عروة بن الورد، وصودرت من تحت وسادته قصاصات، في إحداها:

وإني امرؤٌ عافى إنائي شِرْكةٌ   وأنتَ امرؤٌ عافى إناءك واحدُ

اقتيد عروة بن الورد إلى زنزانة انفرادية. حاملاً نظرات زوجته الأخيرة ورائحة شعرها.

وكانت عقوبته أن يبقى مستيقظاً باستمرار حتى لا يحلم أبداً، ووضع معه حارس يتأكد من عدم نومه بأن يأخذ توقيعه على مجموعة من الأوراق في مواقيت متقاربة.

فكان الحارس ينادي عروة بن الورد كل حين، ويقدم له الورقة ليوقع عليها، ويظلان صامتين بعدها.

على هذه الحال، أمضيا اليوم الأول. وكان الحارس يشدُّ جِلْد وجهه، ويصلب ملامحه. لكن عروة استطاع أن يكشف طيبة في عينيه.. وظلا صامتين.

كانا أحياناً يرنوان نحو بعضهما طويلاً، ولكنهما لا يتكلمان.

وفي اليوم التالي أخذت عضلات وجهه تسترخي، ثم صارت أجفانه تتورم من النعاس. وكان عروة بين الورد يتأمل الجدران والسقف، ثم ينظر

في وجـه الحـارس، فيتقـدم هـذا ويأخـذ توقيعـه. وظـلا طـوال هـذا الوقـت صامتين.

قبيل مغيب اليوم التالي، تقدم الحارس ليأخذ توقيع عروة، فهمهم عروة بخفوت.

قال الحارس: "ما بـك؟ قـال عـروة: "وأنـت .. ألا تحلـم؟" تسـاءل الحارس: "أحلم؟" أعاد عروة : "ألا تحلم أنت"؟

أطال الحارس النظر إليه، ثم اقتعـد الأرض إلى جانبـه ونظـر (لأول مرة) عبر الكوة إلى الفضاء.

ثم راح يرسم على ورقة التواقيع خطوطاً متمايلة، وأشكالاً متناثرة، وزهوراً وشموساً مشرقة. أراها لعروة بن الورد، فابتسم عروة بمودة، وأخذ ورقة أخرى، ونظر عبر الكوة، وراح يرسم خطوطاً وأشكالاً متناثرة وزهوراً وشموساً مشرقة.

وكان الحارس يراقبه مبتسماً، حتى انتهى، فأخذ القلم منـه، وراح يرنو إلى الفضاء، ويرسم.

وظلا صامتين يحلمان، ويرسمان معـاً. وحـين اسـتغرقتهما الرسـوم والأحلام أتى النعاس، ففكر الحارس؛ لو نمنا الآن، فإننا نستيقظ، ونجمع

الأوراق قبل أن يأتوا.

فابتسم عروة، وأسند رأسه على الحائط، وأغفيا معاً تجاه الكوة.

في الصباح جاء الرجال ، فوجدوا الحارس وعروة بن الورد مستغرقين في نوم عميق، ويبتسمان ورأسهما متساندين، وحولهما أوراق كثيرة مبعثرة، تبدأ بتواقيع متكررة، ثم رسوم وخطوط كثيرة.

فتساءلوا، ثم جمعوا الأوراق، وأخرج واحد منهم مسدساً.

فانفتحت في جبهتي عروة والحارس ثغرتان فاغرتان تجاه الشمس، وانفتحت عيونهما على سعتها، وظلت شاخصة عبر الكوة، على سماء كانت ألوانها تتغير ببطء.

---

* من مجموعة "مكان أمام البحر" أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٣م.

ليلى والذئب

جلست ليلى عند جذع شجرة في وسط الغابة.

كانت متعبة وقلقة. أحست بألم مبهم في داخلها. حاولت أن لا تفصح عنه، حتى لا يظهر ملامحها في الصورة المواجهة للأطفال، في صفحة الكتاب الذي يحتوي على قصتها مع الذئب.

أخذت باقة الأزهار التي جمعتها من الغابة، تذبل في يدها. وعندما رفعت غطاء السلة التي كانت تحملها في يدها، وجدت أن الخبز فيها قد جف، وأن التفاحات أخذت تتعفن.

إلاّ أنها اضطربت حين لاحظت أن رداءها الأحمر أخذ يبهت. فأحست ليلى أن زمناً مر عليها في انتظار الذئب منذ وصولها إلى الغابة لتقطف الأزهار وتلتقي الذئب.

لكن الذئب لم يحضر.

وعندما بلغ بها التعب والانتظار والقلق هذا القدر، اقتعدت مكاناً عند جذع الشجرة، وراحت تفكر بحالها، وبالربكة التي سببها لها غياب الذئب.

ما الذي أخّره كل هذا الوقت! وماذا سيحدث لو أنه لم يحضر! فكما يعرف كل الأطفال، لا تقدر ليلى (منذ رسم لها هذا الدور في القصة) أن ترجع إلى بيتها، وتواجه أمها، التي حمّلتها الطعام، وطلبت منها أن توصله إلى الجدة المريضة في الطرف القصي من الغابة.

ولا تقدر أن تذهب إلى بيت الجدة، قبل أن يسبقها الذئب إليه، ويلتهم الجدة، وينام في سريرها.

لكن الذئب لم يظهر بعد.

وقبل أن يبلغ القلق في نفسها درجة غير محتملة، مر ببالها خاطر، ماذا لو أن الذئب ذهب إلى بيت الجدة، من دون أن يمر بالغابة ويلتقي بليلى

لكنها أبعدت هذا الخاطر، حيث تيقنت من أن الذئب، على ما يتميز به من صفات تجعله من الأشرار، لن يجرؤ على الخروج على نص القصة. فاطمأنت قليلاً.

لكن حين بدأ ضوء النهار ينزاح ببطء عن الأشجار، وراحت الظلال تزحف على الغابة، وتجعلها أكثر دكنة ووحشة، أخذ قلق من نوع آخر، يزحف على نفس ليلى، إذ صارت تفكر بالذئب نفسه، وليس في دوره

المرسوم في القصة:

ماذا جرى له يا تُرى! ولماذا تأخر إلى هذا الحد!

وخشيت أن يكون مكروه أصابه.

فرغم العداء والتنافر الممتد في القصة بين ليلى والذئب، إلاّ أن زمالتهما واشتراكهما في أحداثها، أوجد بينهما ألفة، لا يدركها غيرهما. ويحرصان على إخفائها عن الآخرين، حتى لا تفقد القصة عناصر التشويق والإثارة في الصراع بينهما.

وقادها ذلك إلى التفكير بالآخرين:

ماذا يحدث لهم، لو أن الذئب لم يحضر..

فكرت، بمئات، وآلاف الأطفال الذين يقرأون القصة، كيف ستذوي دهشتهم، عندما تزول من رؤوسهم الصغيرة الإثارة التي يولدها ظهور الذئب، وما يجري له في القصة.

وفكرت في الارتباك الذي سيعاني منه آلاف الآباء والأمهات الجالسين على حواف أسرة أطفالهم، يهدهدونهم ويسحبونهم عبر أحداث القصة المثيرة إلى النوم؛

ماذا سيكون من حالهم، لو أن الذئب لم يظهر، وكيف سيحتالون

أمام أطفالهم على هذا الموقف المربك. إذ لن تساعدهم أخيلتهم على الخروج منه.

وحَمَدَتِ الله، على أن غياب الذئب في هذا الوقت، وانتظارها له، وقلقها عليه، وحتى ذبول الأزهار وبهوت ردائها الأحمر. كل ذلك لن يظهر على صفحات القصة، لا بالكلمات ولا بالصور. وسيظل خفياً كخفاء علاقتها الخاصة بالذئب.

هنا عاودها التفكير فيه. وتمنت أن يأتي بسرعة، قبل أن يصبح غيابه دائماً، لا يمكن معالجته في القصة.

بدأت ليلى تحس بالإعياء لثقل ما فكرت فيه، ثم راحت نظراتها الباحثة في أرجاء الغابة تنوس، وكادت تغفو عند جذع الشجرة، لولا أن ظهر ظل باهت، ومتطاول، فاجأ وعيها، فتيقظت له، وحدقت أمامها.. فإذا بالذئب يقترب بخطى متعثرة متعبة، ورأسه منكوس، إلى أن وصل أمامها.

حاولت أن تنهض لاستقباله، إلا أنها لم تقدر.

لكن وجدت لديها قدرة كافية، لتهتف به بحدة:

"لماذا تأخرت.. خفت أن لا تأتي أبداً..."

ظل الذئب صامتاً يحدق في ليلى بذهول..

فأكملتْ: "تأخرتَ كثيراً.."

قال الذئب بصوت خافت: "كنت أفكر بأن لا آتي أبداً"

حَدَّقتْ فيه: "ماذا؟!"

قال: "بالأمس ولدت زوجتي جراءً صغاراً. صار عندي أطفال. فرحت بهم، ونسيت نفسي. فقضيت طوال الليل ألحس أبدانهم.. وطوال النهار أراقبهم.. وأفكر فيهم، وأحلم أن ألاعبهم، وأراهم يكبرون.. وأحكي لهم حكايات، ثم تذكرتك، فقلت لا يجوز أن تبقي هنا تنتظرين في الغابة.. فجئت.."

هبت ليلى واقفة وهتفت: "إذن هيا بنا لنكمل قصتنا".

نظر الذئب إليها، وكأنه يتوسل، ثم قال بصوت واهٍ: "جئت لأعتذر. لا أريد أن أكمل دوري في هذه القصة.."

فتحت عينيها بذعر، وقالت: "ماذا؟"

قال بصوت متهدج: "أرجوك.. يا ليلى".

قالت ليلى: "لا تقدر. أنا أيضاً أتمنى أن أكون الآن في البيت. تحكي

لي أمي حكاية، وأنام على زندها. ولكن لا أقدر. أنا وأنت يا ذئب محكوم علينا أن نقوم بهذين الدورين في القصة".

قال الذئب : "وماذا يهمك أنت. ستخرجين من القصة بطلة منتصرة، وحية. أما أنا فأخرج شريراً مهزوماً.. وميتاً".

قالت ليلى: "أنت تخاف الموت.."

قال الذئب: "ومن لا يخاف الموت! ثم إني تعبت من هذا الدور، فلا أريد أن ألتهم الجدة. ولا أريد أن أخدعك..".

قالت ليلى: "أنا سأكشف خدعتك. والجدة ستنقذ من بطنك، وتخرج حية. عندما أستغيث، ويأتي الحطاب، ويقتلك".

قال الذئب بانكسار: "وأنا أبقى ميتاً، لا أريد أن أموت. أريد أن أعيش مع أطفالي حتى يكبروا، وأهرم، وأموت ميتة طبيعية. لا أخاف الموت. ولكني لا أريد أن أموت هكذا. أحب الحياة. أرجوك يا ليلى".

أخذ شيء ما، غامض، يتكسّر في داخل ليلى. وكانت تحس تكسره الموجع.

إلاّ أنها تصلبت، وقالت: "غير ممكن. مستحيل. مؤلف القصة مات منذ زمن. ولا يمكن تبديل أحداثها. والقصة منتشرة هكذا بين أطفال الدنيا.

ألا تفكر فيهم ! ماذا سيحدث لهم لو رجعتَ ولم تكمل القصة. ستموت الإثارة في نفوسهم. هروبك من إكمال القصة.. هزيمة لهم".

ونظرت إليه نظرة حانية، وقالت وهي تغص بالكلمات: "أفهمك يا ذئب. وأحس بما تحس به. لكن لا جدوى. محكوم علينا أن نفعل ما هو مرسوم لنا في القصة. فلنفعل ذلك بسرعة. دون أن نفكر بالأمر.. سيكون ذلك أخف ألماً. هيا أسرع الآن إلى بيت الجدة التهمها. ثم نم في سريرها، حتى أصل أنا فأظنك الجدة. وأسألك عن عينيك الكبيرتين، وأذنيك الكبيرتين ، وفمك الكبير بأسنانه الحادة. وأنت تعرف ما يحدث بعد ذلك. هيا يا عزيزي الذئب. أرجوك ليس من أجلنا، بل من أجل ملايين الأطفال الذين ينتظرون النهاية بلهفة.."

تمتم الذئب بأسى: "نهايتي.."

تمتمت ليلى بحسرة: "نهايتك.."

دمعت عينا الذئب، وقال بصوت مرتجف: "وأطفالي أنا.."

لم تجد ليلى ما تقول، فظلت تحدق فيه بعينين دامعتين، ثم تنبهت، فتماسكت، وشدّت قامتها، واتخذت وضعها المناسب الظاهر في صور القصة.

أدرك الذئب، أن لا مفر أمامه، فلوى عنقه بانكسار، وسار مبتعداً عن ليلى عبر الغابة باتجاه بيت الجدة، بخطى واهنة متعثرة.

وكان بين الخطوة والأخرى يلتفت إلى الوراء، لعل ليلى تناديه، أو تشير إليه بأن يرجع، إلى أن أخفتها عن ناظريه ظلال الغابة المعتمة الكابية.

وبعدها...

سارت أحداث القصة بالتسارع والتشويق و الإثارة المرسومة، إلى أن انتهت بقتل الذئب، وجلوس الجدة والحطاب وليلى إلى المائدة، فرحين بانتصارهم عليه، وخلاصهم منه.

وما إن أُغلقت الكتب على قصة ليلى والذئب.

وقبّلت الأمهات أطفالهن السعداء بالنهاية السعيدة. وأغلق الآباء الأبواب على أطفالهم بدِعَةٍ واطمئنان..

حتى كانت ليلى، في المنطقة المعتمة، التي لا تبلغها القصة، ولا يصلها الأطفال، وحيث لا كلمات ولا صور، وراء غلاف القصة..

تجثو عند جثة الذئب، تضع رأسه في حضنها، وتبكي بكاءً مراً.

من قصص هند أبو الشَّعر

عندما تصبح الذاكرة وطناً

الحجارة التي تركتها الأيام العتيقة تقف شامخة متراصة، تسور المدينة القديمة، وترقب الشوارع الجديدة، كان الناس حولها من جنسيات كثيرة يتطلعون بشغف وانبهار إلى السور الحجري الذي يلف (رودوس)، ويرقبون البحر بنظرات شفافة بعيدة.

جلست بينهم بانتظار الحافلة، دق قلبها بعشق قديم للحجارة الكبيرة الصامدة، وللسور الشامخ باتجاه الأفق.. دهستها رائحة (القدس) انبعث في خلاياها المتغربة، وفاضت حزناً لا نهاية له.. تطلعت إلى البعيد، وغامت أمامها الأشياء.

راقبت الناس أمامها على الرصيف المقابل يتحلقون حوله، كان طويلاً ونحيلاً، وقد أطلق لشعره الأشقر حرية الحركة، تابعته يجلس أمام حامل خشبي قديم، ويضع أمامه اللوحة البيضاء، حركات أصابعه الرشيقة مؤثرة، جلس أمامه كهل تشع السعادة والرضى بالنفس من ملامحه، راقبت ملامحه الأوروبية الشمالية تنتقل بمهارة مذهلة إلى اللوحة، بهرتها السرعة والدقة. كان مقعدها الحجري العالي يظل على المدينة

القديمة، ويستشرف الأفـق، اتسع أمامهـا المنظـر المقابـل علـى الرصـيف، راقبـت الوجـوه الـتي تتطلـع إلى الحيـاة بأمـل.. رأتهـم يفرحـون بطفولـة عجيبـة، يجلسون أمام الحامل بدهشـة، يبتسـمون لـه، وهـو ينقـل الملامـح بحماسة وثقة.. لكن الأشياء.. كل الأشياء الداخلية الغائمة البعيدة، كانـت تلف السور الحجري أمامها، تنبض برائحة القـدس، وتتكثـف في الأعمـاق بحرقة.

وقف أمامها فجأة، كان يحمل في يده كومة من العنب، ضحكت لهـا ملامحه الأوروبية الشمالية، ترك ألوانـه وخطوطـه علـى الرصـيف وجـاء، أحست به يتفحصها بدقة فنيـة، جلـس إلى جوارهـا، جلـس معـه الـدفء والعواطف الإنسانية المكثفة، التقط حبة كبيرة من العنب، وضعها في يدها، وقال بصداقة حارة:

- لا تقولي بأنك لا تحبين العنب.. لأنني لن أصدقك.. !

تأكدت من أنه ليس إنجليزياً، لكنته تـدل علـى إغراقـه في الشـمال الأوروبي، ابتسمت وقالت:

- عليك أن تصدق بأنني لا أحبه بالفعل، لكنني سآكلها بالتأكيد.

ضحك بسعادة، ضحكت بمجاملة. كانت أوروبا كلها تضحك معـه..

أوروبا الغارقة في أفراحها واهتماماتها الخاصة.. أطل الخوف والحرب والمطاردة والحزن من عينيها، وزوبعت رياح الخماسين الجافة في أعماقها، التقت بادية الشام بشموسها، بندى "أوسلو" الصباحي الغائم.. تابعته يختار جزءاً من كومة العنب بعناية عكست ذوقه الفني، وضعها في يدها، حاول أن يقترب منها أكثر، أنفاسه القريبة تحمل اهتماماً حقيقياً لا تزييف فيه، أحست به، برقت عيناه بفرح إنساني عذب، قالت بصوت شرقي هامس:

- حسناً.. أشكرك...!

ارتاحت ملامحه، حدق بها من جديد وهو يتكئ بمرفقه على المقعد الحجري، رأته يبتسم بصدق، قال بنبرة حميمة:

- إنه صحي.. أكثري من تناوله:

هزت رأسها، وتذكرت الكروم التي تملأ الأفق الشرقي البعيد.. كانت تريد أن تخبره عن الكروم الندية هناك..والتي تزدحم بها الذاكرة .. وخزتها الصور البعيدة المسلوبة، أحست بأنها أمام غريب اقتحم عالمها فجأة.. قطع صور الحواس المسافرة في الشوارع الضيقة، والوجوه الشرقية العتيقة، وحجارة القدس الصامدة.. قالت باحتجاج مهذب:

- وهل هذه نصيحة فنية..؟

هز رأسه، تحرك شعره في كل اتجاه، قال بهدوء:

- لا، النصيحة الفنية هي أن تجلسي أمامي لأقوم برسمك مجاناً..

- أنا....؟

- نعم، لملامحك عمق مؤثر.. لقد جذبتني ملامحك منذ اللحظة الأولى.. ما رأيك..؟

تعرف أنهم يحبون الشرق بألوانه ووجوهه ولحظاته الشفافة الدامعة.. تعرف ذلك لكنها لا تريد أن تكون خطوطاً حزينة على لوحة لغريب.. عوالمها الداخلية عميقة لا تقدر الخطوط على اجتيازها، تتراكم فيها مخلفات لزمن لا عدد له، وشعوب لا ترصدها الذاكرة..

قالت بنبرة حارة، حاولت أن تجعلها قادرة على الاعتذار:

- لا أظن ذلك.. لأنني لا أملك الوقت..

- لا أقصد الآن.. في أي وقت تختارينه.. أعطني عنوانك إذن..

هزت رأسها وهي تقول:

- آسفة .. لكنني سأسافر غداً..

تطلع إلى وجهها، أحسته يتفحص دقائق الوجه.. نجح في اختراق أعماقها للحظة، ركز نظراته في عمق العينين، هربت إلى البعيد، قال باهتمام:

- اغفري لي تطفلي.. لكنني أريدك في ذاكرتي..!

- ....

- أرجوك، دعيني أصور ملامحك.. أنت متميزة بين هذه الوجوه...

وجهه يبعث على الفرح.. يمكنها أن تحس بأن العالم صغير ورائع.. يتقاسم فيه الناس العواطف الإنسانية الرقيقة.

- هل وافقتِ...؟

- لا أدري.. ربما في زمن آخر.. لا يمكنك أن تخمن.. فالعالم صغير هذه الأيام...

اقترب منها، صار قريباً جداً، أحسته يحتاج إلى لحظة شعورية تحرك مكامن الفن فيه.. تعرف أنه يهتز من الأعماق، قال باهتمام كبير:

- اغفري لي من جديد، لكنك حزينة جداً.. لماذا أنت حزينة هكذا..؟ لقد حفرت ملامحك في الداخل.. حزنك لا ينسى...؟

انتقض كل شيء في أعماقها .. القدس .. النـاس .. الأشياء البعيـدة القريبـة.. ساحات الحرب.. الهموم المحفورة علـى الجبـاه، أحسـت فجـأة بحاجتها إلى تقاسم هذه اللحظة المحملة بالوطن وأحزان الأهل مع أحدهم.. أيا كان.. قالت وغيمة تملأ العينين المنفتحتين على سماء المتوسط:

- إنه السور.. والحجارة العتيقة.. تذكرت (القدس)...!

اندفع الرجل واقفاً، قال بنبرة اكتشاف:

- أنت من إسرائيل إذن...!

مـات كـل شـيء في داخلـها فجـأة.. دوى العـالم في كهـف أعماقهـا البعيد.. انفجر الحزن الحقيقي.. انفجر في كل مكان.. دوّى في الأفق وتجمع أخيراً في صوتها، قالت وهي تستشرف الأفق البعيد بصوت عميق مقهور:

- لا أنا عربية!

سمعت صـوتها يعلـو .. ينـدفع.. أحسـته يـركض يـركض.. يجتـاز السور.. ويعدو على شاطئ المتوسط النظيف.. حصاناً يطارد الأمـواج وينـدفع بـلا توقـف.. لا تـدري كيـف نهضـت.. سـارت والسـور القريـب يسـير إلى جوارها حميماً قديماً لا نـهاية لامتداده.

أيلول ١٩٨٦

---

* من مجموعة "عندما تصبح الذاكرة وطناً" وزارة الثقافة ، عمان ، ١٩٩٦م.

كارمن

سيمفونية، نغم، هذا ما أطل عليك في مكتبك الرسمي فجأة، سيمفونية رقيقة ومذهلة، طرقة واحدة على بابك، وانفتح الباب.. دق قلبك وانفتح ودخلت.. هي، السيمفونية التي لا وصف لها.. لا تتذكر غير أنها في صباح حار جاءتك تحمل أوراقها.. تتذكر البريق العجيب الذي التمع في عينيها.. اللون.. ماذا يهمك؟ أخضر..؟ لا أظنه عسلي.. لا.. لا المهم أن البريق التمع في قلبك.. استعد وعيك، برقت (كارمن) في أعماقك الحزينة.. دهمك عالم كارمن الغني المدهش، الصاعقة الدائمة في قلبك. دهمك عطر السيمفونية الواقفة أمامك، في هذا الصباح الصيفي الحار.. آلهة من عالم مجهول جاءتك.. ضحكت القسمات العادية المتسائلة.. لا، ليست، آلهة بل امرأة رائعة فيها سحر غرناطة، عبق أروقة (الحمراء) لفّك.. شموخ جبال (سييرانيفادا) واجهك.. رائحة السحر الشرقي (المعتق) انبعثت في مكتب، وبدأ قلبك يفرح.. بدأ يدق برعونة..!

- أستاذ حسام...؟

رفعت رأسك، واجهك كبرياء الرموش.. كيف تستطيع هذه المرأة أن

تغفو..؟ فكرت وأنت تتأملها.

- أستاذ حسام، تحتاج أوراقي إلى توقيعك..

خفت أن تفقدها إن وقعت أوراقها.. ستذهب كما فعلت كارمن .. سيتلقف رئيس ديوانك الأوراق ببلاهته المعهودة، يحفظها في ملفاته.. وتذهب هي.. السيمفونية الأندلسية المدهشة، المفاجئة! قلت بطريقة رسمية وأنت تستطلع الوجه الهادئ:

- اسمحي لي من فضلك..

أناملها اللاتي امتدت إليك، أضاءت البعيدة.. ليست عادية أبداً.. ليست مثل النساء الأخريات، نيزك مبارك أتاك من كون بعيد.. أضاء أبعادك، اخترق مساحاتك.. أشعل خلاياك بالصور القديمة المتوهجة.. قلت بهدوء وأنت تثبت وضع نظاراتك الطبية على عينيك: - اجلسي من فضلك ...

رفعت رأسك بارتياح، تابعتها تمتثل لأوامرك، اتخذت وضعاً رسمياً بغيضاً، تريدها أن تحس بك. تعرفك.. أضفت بعد برهة وأنت تضغط الجرس على طاولتك الأنيقة :

- ماذا تشربين...؟

ابتسمت، بدت مألوفة، تعرفك منذ زمن لا تعرفه.. قالت بهدوء وحياد:

- لا بأس.. قهوة، سكر خفيف....

أمرت الساعي بإحضار فنجانين من القهوة، أوصيته بأن يغلي القهوة جيداً، ابتسمت المرأة.. ضحكت لك غرناطة، تماماً كما كانت تضحك لك كارمن.. وأنتما في (سوق الحرير) تستطلعان الخطوط العربية الباقية على شبابيك دور غرناطة القديمة.

أخذت تقلب الأوراق.. أيامك أيضاً تتقلب. والسيمفونية الأندلسية الجديدة تتأمل مكتبك.. تتطلع إلى السقف ترفّ جماعات الرموش.. كارمن أيضاً كان لها رموش طويلة وجميلة .. المرأة أمامك تتخذ شكلاً مألوفاً.. ثوبها الأزرق. حقيبتها الأنيقة .. كتابها المفتوح.. وكارمن أيضاً كان لها ثوب أزرق، وكانت تحمل كتبها الجامعية، كانت تحب أن تقرأ في (جنة العريف) كنت تجلس مقابلاً لها على المقعد الخشبي الأخضر، والأشجار تتشابك فوقكما..وينبعث العطر مع أكوام الزهور المنعكسة على المياه الرائقة والمندفعة في كل مكان..

- أستاذ حسام...؟

كارمن لم تكن قادرة على لفظ اسمك.. كنت تضحك منها، كانت تغضب وتقاطعه كلما ضحكت من لهجتها الإسبانية السريعة .. قلت لها يوماً:

- لا بد وأنَّ جدتك تخصني.. لابد وأنَّ أحد أجدادك كان من دمشق أو البلقاء.. وربما كان اسمه حسام...!

- القهوة .. أستاذ حسام.

انبعث صوت الساعي الأجش حولك.. تابعتها تتناول الفنجان وتشرب القهوة.. كارمن أيضاً كانت تشرب القهوة معك هناك في المقاهي الصيفية، ونسمات (سييرانيفادا) الباردة المنعشة تتلاعب بشعرها. المرأة التي تجلس أمامك تتطلع إليك.. تحاول أن تجاملك، تبتسم، تقول فجأة:

- أرجو أن انتهي من توقيع جميع أوراقي اليوم..

- وَلِمَ العجلة ... ؟

صوتك الخائف ينبعث من قلبك ... هي لا تعرف أن الدقائق الخمس صارت عالمك الجديد، وأنك لا تستطيع أن تفسر سبباً لهذه المشاعر المجنونة المفاجئة.

انبعث صوت السيمفونية بهدوء في أذنيك:

- لأنني سأسافر غداً... ؟

وأنتَ سافرت .. تركتَ غرناطة في ليلة شتائية صاخبة، عدت إلى الوطن ومعك صورة لها، كارمن الجميلة تضحك.. كارمن تكتب لك.. تعشش في ذاكرتك.. تأتيك العشيرة.. الأهل.. الوظيفة.. الناس.. الأيام.. كارمن تتوقف عن الكتابة.. تغيب .. تضيع منك.. صورتها تضيع.. تضع بدلاً منها صورة كبيرة لك ولزوجتك في ثوبها الأبيض.. تتكاثر الصور حولك .. أطفال.. أهل.. أناس آخرين.. صور تعيش معك، حياتك باهتة وعادية، وكارمن وحدها تتغلغل في أعماقك وتتوهج. يخبو صوت السيمفونية الأندلسية المفاجئة .. يجيئك الآن باهتاً.. الشموع انطفأت .. انطفأ قلبك.. انطفأ. وحدها كارمن هناك.. ودّعتك المرأة.. بسرعة .. ابتسمت لك بلطف وهي تعبر المكتب، رأيتها تمحو الابتسامة وهي تنسحب.. ساد الصمت.. جلست وحدك تنتظر موعد انتهاء الدوام الرسمي.. تعرف أنك ستنسحب إلى بيتك.. بحركات روتينية ميتة.. لتحملق في المساء مع الآخرين بالصور المثيرة لمسلسل أمريكي بشع.

كانون الثاني ١٩٨٨

---

* من مجموعة "عندما تصبح الذاكرة وطناً".

من قصص أمين فارس ملحس

الأسطر الحمراء

"مهداة إلى البطلة الشهيدة حياة بلابسي، وإلى الأبطال الشهداء أبطال معركة دير ياسين"

على مفترق الطرق وقفت، ورأسها يضج بمزيج صاخب من الأصوات والصور، يكاد يذهلها عن نفسها وعن كل ما يدور حولها، كأنها في حلم مرعب: فقعقعة السيارة العتيقة التي حملتها من القرية الملتهبة في حراسة نفر من حماة القرية المسلحين، ولهاث السيارة وهي تُصَعّد الأنات والزفرات في الطريق الوعر. كل هذه وتلك لا تزال تتردد في سمعها وخلدها، وهي واقفة على مفترق الطريق.

"تفضلي انزلي يا ست حياة بسرعة حتى تتاح لنا العودة إلى القرية. فهذا الطريق الوعر هو المنفذ الوحيد الذي تركته كماشة الأعداء.. مع السلامة".

المنفذ الوحيد؟ يا إلهي.. لماذا لم يخبروني إلا الآن؟ وعادت السيارة أدراجها تئن وتزفر وتتلوى فوق الطريق الوعر..

وسرت في أوصال حياة رعدة شديدة شبيهة بتلك التي اعترتها، وهي واقفة في مدرسة القرية قبل قليل تواجه التلميذات الصغيرات حينما

أحست بالقرية تميد من القصف، وحينما كانت البنات ينشدن:

بلادي بلادي فداك....

وغصت حلوقهن الصغيرة بكلمة "دمي" كأنهن يشرقن بها، واستمر النشيد يتحشرج وهب.. ت.. ح.. يا .. تي فدى.. فا.. س.. ل.. مي تنبعث مقاطعه مبعثرة كالأشلاء من هذا الفم وذاك.. وأغلقت الحناجر المغردة تكاد لا تقوى حتى على ابتلاع الريق.. وشَخَصَتْ عيون الطفولة البراقة المحملقة إلى المعلمة.. متشبثة بها كالغريق.. تسأل عما عساهن يفعلن.. .."، وتهدج صوتها وهي تقول: لا تتحركن.. كل واحدة في محلها..

ووقع بصرها عليهن تماثيل للخشوع المشوب بالذعر السانج، متسربلاتٍ زيهن المدرسي المخطط أبيض وأزرق.. وحانت من حياة التفاتة إلى دفاترهن وإذا بها أيضاً مخططة أبيض وأزرق، وقد تخللها الحبر الأحمر، أعملته يدها فيها تصليحاً.. فسرت في جسدها قشعريرة مثلجة.. "بلادي بلادي.. فداك دمي.. دمي.. دمي.. " ولم يعدها إلى عالم الحس الخارجي إلا صوت قعقعة السيارة العتيقة وتوقفها لاهثة في ساحة المدرسة.

أسرعي يا ست حياة.. عليك أن تغادري القرية حالاً.."

ولا بد أن المتكلم لمح في وجهها أمارات الحيرة والتردد حين صاح:

"بأمر من عطية.. ال..ال.. القائد.. يجب أن "تروحي". وأحست برأسها يدور صوب المراييل المخططة أبيض وأزرق. وبمنديلها يرتفع إلى عينيها يبحث عن الدمع فلا يجده. وسمعت نفسها تقول: وأنتن أيضاً.. هيا إلى بيوتكن.

وأفلتت الصغيرات من مقاعدهن كتلاً متراصة على الأبواب مولولة مجنونة.. وانفرط عقدهن إلا زينب الصغيرة أم العينين البراقتين الذكيتين.. أحست حياة بيدها الصغيرة تشد ثوبها شأن طفولتها كل يوم لتقول لها كأن شيئاً لم يحدث: مع السلامة يا معلمتي.. ورأت حياة يدها هي تربت على شعر زينب الممشط المعقوص بشريط حريري أبيض بسيط.. "فداك دمي.. دمي.. دمي.." وأسرعت إلى السيارة تخفي نفسها عن الدنيا، وتخفي الدنيا عن نفسها..

على مفترق الطرق وقفت حياة.. فالطريق المؤدي إلى المدينة مفتوح لها تستطيع أن تسلكه، وتصل سليمة معافاة إلى البيت حيث تنتظرها أمها المقعدة، التي فقدت كل معيل إلا حياة وحيدتها.. أمها التي شيعتها صبيحة هذا اليوم.. شأنها كل يوم، بالدعوات والصلوات والآيات الكريمة، تقرأها وهي تربت على رأسها تماماً كما فعلت هي مع زينب اليوم قبل قليل.. أمها التي تؤمن إيماناً عميقاً، أنها تشيد هذه الابتهالات بيدها،

التي تتحرك برفق فوق رأس ابنتها، تشيدها سياجاً يقي حياة شر كل أذى.

وسرَّحت حياة الطرف من الطريق المشرف على المدينة في بنيتها المتمطية شرقاً وغرباً كالعملاق المتثائب.. كأنها تستشف من وراء جدرانها وأسوارها منظر أمها طريحة الفراش تنتظر بصبر معهود عودة حياة إلى البيت لتستقبلها ابتسامتها الصابرة الراضية.. ولكي تفرغ هي كل برّها في قبلة عميقة تضعها على يد الأم الكسيح..

وأحست بالشواظ المنبعث عن القرية المضطرمة بلهيب المعركة يلفح ظهرها.. الشواظ الذي خرجت منه هي بأمرعطيّة الذي أطلق عليه رفيقه متردداً لقب القائد.. وأضاءت وسط الحلكة المصطخبة في رأسها ابتسامة جنون، لم تدر على وجه التحديد، هل ارتسمت حركة على وجهها، أم ومضة في غياهب نفسها.. كأنها به قد قال لصبحه الأبرار بوحي من الحمية العربية العميقة الجذور في تربة القرية. "يا جماعة حياة فتاة من المدينة.. يقتضينا واجب الضيافة أن نعمل على إنقاذها.. فاحملوها في السيارة إلى الطريق الخلفي المؤدي إلى المدينة.." وكأنها به يوصيهم أن لا يبوحوا لها بالسر الرهيب كي لا يصيبها الذعر.. "إياكم أن تقولوا لها أن الطريق الوعر هو المنفذ الوحيد.. لأن كماشة الأعداء تضيق الخناق على القرية من كل صوب وحدب.. وستنطبق عليها في أية لحظة..

وأحست حياة بوجيب قلبها يكاد يشطره شطرين: شطراً يبعث به إلى أمها الحبيبة، يخفف عنها هول معركتها مع الحياة. وشطراً يرسله إلى القرية الحبيبة ليمد لها يد العون في معركتها المستميتة ضد العدو الغاشم. يا لقلب الأم المعلق في صدر المرأة الكسيح.. ويا لهذه الخلجات العجيبة تحس بها حياة في قلبها هي أيضاً تضج في أعماق كيانها فتهزه هزاً... حين تعود إلى مخيلتها المراييل المخططة أبيض وأزرق، والعيون المذعورة المتعلقة بها. وحين يدغدغ راحتها ملمس رأس زينب أم العينين الذكيتين.. "مع السلامة يا معلمتي" "فداك .. دمي.. دمي.. دمي.." وسمعت حياة رجع أصداء بعيدة الأغوار تتردد في جنبات أعماقها: "أنتن أيضاً بناتي" واستشعرت فيضاً من الحنان يغمر قلبها، ويجرفها كلها في لجاته، كأنها تسبح في خضم مسحور.

وتحركت قدماها ميممة شطر السعير المتأجج، تحس بالمدينة الكبيرة خلفها قد ألقيت برمتها على كاهلها أيضاً.. وسارت تحمل عبئها وسارت تحمل عبئها الثقيل وقلبها المفعم "فداك دمي.. دمي.. دمي..".

ووسط أزيز الرصاص وزئير القنابل زحفت حياة تخترق الأوار.. ما هذا الذي يقع بصرها عليه في زقاق من أزقة القرية مبعثراً في جنبات الطريق؟ إنه المراييل المخططة أبيض وأزرق هامدة لا حراك فيها.. وسرت

في جسد حياة تلك القشعريرة التي اعترتها داخل مدرسة القرية وعند مفترق الطريق.. ومَنْ هذه البنية الممزقة على مقربة من حياة؟ إنها الصغيرة زينب ذات العينين البراقتين الذكيتين.. إن العينين لا تزالان براقتين، ولكنه بريق الزجاج.. ومريول المدرسة المخطط أزرق وأبيض ينزُّ دماً قانياً، كأنه أسطر دفترها الملقى إلى جانبها وقد تخللها الحبر الأحمر.. والشريط الحريري الأبيض الناصع قد غدا أحمر قانياً.. ومدت حياة يداً وجلة إلى رسغ زينب تتحسس النبض فلا تجده. وطبعت على اليد الصغيرة قبلة، أفرغت فيها كل أحاسيس الأمومة "مع السلامة يا معلمتي.." ومضت في سبيلها صوب الخطوط الأمامية.

وهناك وقع بصرها على ما كان يدور من صراع: كان أهل القرية قد حفروا خندقاً عميقاً طويلاً، وأقاموا وراءه التحكيمات من البيوت وأكياس الرمل. وكان العدو يحاول جاهداً أن يسد الثغرة، أو يلقي جسراً تعبر عليه دباباته، وما أن يترجلوا حتى يسمع أزيز رشاش من القرية يحصدهم حصداً، فيفرغون جام حقدهم على القرية يقصفونها بالقنابل..

والتقت أعينهما لقاء سريعاً، وقع بصر حياة فيه على بندقيته، وصاح في وجهها:

– ما الذي أتى بك ثانية يا ست حياة؟

- من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم يا عطية.

والتقت أعينهما لقاءً سريعاً، وقع بصر حياة فيه على وجهه الأسمر الصلب، ينطق بالعزيمة والاستماتة..

- ولكن ما الفائدة؟

- أستطيع أن أسعف الجرحى.. أحمل إليكم الماء والطعام .. أي شيء..

وفتح الشيخ سليمان عينيه فعرف حياة، وبادر إلى سؤالها بكلمات متقطعة عن ابنته زينت، وهل وصلت سالمة إلى البيت؟ فطمأنته. ونظر إليها نظرة مذعورة، وقال: "ولكنني أفضل لها أن تموت على أن ..." وفارق الحياة.

واستدعيت حياة على عجل لتسعف جريحاً آخر، فاقتيدت إلى سطح أحد المنازل، وقد نُصِبَ عليه مدفع "برن" خرجت فوهته صامتة من بين أكياس الرمل. وإلى جانبه شاب. إنه "محيسن" ابن الشيخ سلمان وأخو زينب.. وكان يعاني حشرجات النزع الأخير، ويهذي مردداً: الذخيرة.. الذخيرة.. هل وصلت.. قبل أن يسلم الروح. وحانت من حياة التفاتة إلى المدفع الحزين، وقد خلت الصناديق المجاورة له من أية ذخيرة. وسمعت صوتاً يقول:

- إنه الرشاش الوحيد في القرية.. وهو الذي استطاع أن يمنع الأعداء

من إقامة جسر فوق الهوة التي حفرناها في الطريق، لكي لا تعبر عنه دباباته ومصفحاته.

ثم سمعت الدبابات تزأر هديرها المنتصر .. وكانت الشمس ترسل إلى القرية شعاعاً أخيراً، ما لبث أن خبا مخلفا القرية في قبضة ظلام، يزحف إلى قلبها وئيداً، لا يلتمع فيه إلا وميض أنصال السونكي، تتحرك مجنونة باحثة في كل مكان، كأنها الأقلام العطشى تسجل الهول على حلكة الليل بأسطر حمراء..

القدس: ١٩٥٢

"من مجموعة : أبو مُصْطُف وقصص أخرى"، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٧٣.

ذيول

الحر شديد، والغبار يتناثر في الطرقات المتربعة بـين أكـواخ المخـيم كلما وقع قدم إنسان، أو حافر دابة عليها، والـروائح الكريهـة تنبعـث مـن المراحيض والنفايات. وأطلقت كل هذه على الهواء الآمـن فأخـذت بتلابيبـه وأخمدت أنفاسه، فأحس حمد أنه لا يستنشق هواء، وأنـه يعـب مـن زفـرة عميقة زفرها المخيم المترامي، وأفزع فيها مأساة قاطنيه، وأن تنفسه هو غدا أشبه باللهاث.

ومذياع متباعد في مقهـى المخـيم يطحـن أغنيـة طالمـا طحنهـا ألـوف المرات، وعويل طفل مريض أو محتضر يترامى إليه خافتـاً، كأنـه قـادم مـن عالم مجهول، وطنين بعوضة وقحة يقترب من جبهته الملتهبة، وكـادت أن تحط على وجهه، لولا أن فاجأها بحركة عصبية من يده.

"ما الفرق بين قتل بعوضة وقتل ذلك الوغد الحقير؟"

وسمع طنين بعوضة أخرى، ونالته قرب أذنيـه، ومـلأ عليـه طـنين البعوض مسامعه حتى غدا كالأثير. إن أزيز الطـائرة الـتي أوصـلته لا يـزال يدوي في أذنيـه، وكـان قـد هـبط مـن الطـائرة خفيفـاً مرحـاً سـعيداً محمـلاً

بالهدايا والأماني، ولم لا يغدو سعيداً، وقد عاد إلى الوطن بعد غيبة طويلة دامت أربع سنوات؟ كيف لا يكون سعيداً وقد وفر ثلاثمائة دينار تحمل في طياتها ثلاثمائة أمل؟ أجل. لقد آن له أن ينقذهما مما هما فيه من الذل والحاجة وعبودية السخرة والقيظ، ولا يجد الوهن سبيلاً إلى عزيمته، هو يحلم باليوم الذي يعود فيه إليهما، وينتشلهما من مخالب الوحش.

وتقلصت أصابع يديه كأنه يهم أن يسحق كل البعوض في هذه الدنيا.

وجاء اليوم الموعود، وهرعتَ ملهوفاً إليه تسأله عنهما فور وصولك.

- والله السلامات يا ولد يا حمد.

- الله يسلمك يا... عم أبو عليان.

- والله الحمد لله على السلامة يا ولد.. ومتى وصلت؟

- اليوم..

- ما شاء الله! ما شاء الله! والله كبرت يا ولد يا حمد وصرت زلمة.

- لقد سألتك سؤالاً لم تجبني عنه حتى الآن يا أبوعليان.

فأطلق أبو عليان ضحكة مدوية كريهة، اختفت معها عيناه الصغيرتان الماكرتان، وتكشف فمه عن أسنان كبيرة قوية ضاربة إلى السواد، وانبعث

من كهف جوفه رائحة العرق والتبغ، والتصق شارباه الكثيفان بأنفه، واهتز جسمه الضخم اهتزازات متتالية.

- ما المضحك في سؤالي يا أبو عليان؟
- أضحك لأنني أجبتك عن سؤالك، ولكنك لا تريد أن تفهم. قلت لك يا ولد علمي علمك. أنا لا أعرف عنهما شيئاً. فهمت؟

واختفتْ الضحكة من وجهه الغليظ لتحل نظرة شرسة، ونهضتَ يا حمد والشرر يتطاير من عينيك، وانصرفتَ دون استئذان.

حتى الجيران والبقال ردوا تحيتك بفتور، وخُيّل إليك أنهم يشيحون بوجوههم عنك حين أقبلت عليهم هاشاً، وتوقعت أن يستقبلوك بحرارة الأصدقاء بعد غيابك أربع سنوات، وحتى حين توسلت إليهم بالرجاء أن يخبروك عن أختيك، لم يعيروا سؤالك انتباههم. لماذا؟ أتراهم يخشون أبا عليان أم ماذا؟ ليس لك إلاّ أن تتوجه إلى صديقك القديم عبد السميع وتسأله عن أختيك..

وفتح حمد باب كوخه الصغير، وأدلج في هدأة الليل البهيم، ورفع بصره إلى السماء يبحث بين النجوم، وإذا ببعض الألعاب النارية تنبجس أضواءها في صفحة السماء صفراء وحمراء وزرقاء وخضراء، وتسمع

فرقعتها، وهي تتدلى قطوفاً من الشرر يتخذ أشكالاً مختلفة. "لا بد أن المدينة الكبيرة تحتفل بعيد قومي لا يدري ما هو".

وأعادت المفرقعات بتفجراتها المتتالية إلى ذهنه لعلعة الرصاص ودوي القنابل في قريتهم الساحلية الجميلة حين هاجمها الأعداء، إنه لا يزال يذكر، وإن لم يتخط السادسة أو السابعة من عمره حينئذ، كيف خَرّ أبوه صريعاً وراء أكياس الرمل، وهو يدافع ببندقيته القديمة عن بيته وأرضه وعائلته ووطنه. إنه يذكر ما أصاب أمه من هلع، وكيف هامت على وجهها مع الهائمين تطلب النجاة له ولأختيه، وانضموا إلى جموع النازحين بلا مأوى، أو في مغارة، ثم في خيمة، وثقلت النكبة على الأم، فلم تمهلها طويلاً وماتت، واحتضنته أخته الكبرى مع أخته الصغرى تحت خيمة واحدة، وفي بطاقة مؤن واحدة، ودخل المدرسة، وأمضى فيها ست سنوات كانت أخته تحيطه وأخته الصغرى خلالها بكل حنان الأم، أو يبدو كذلك، إلى أن تسلسل ذلك الوغد إلى حياتهم، لقد أحس بالمقت الشديد منذ الوهلة الأولى تجاه هذا الدخيل الجديد بجثته الضخمة، وشاربيه الكثيفين المتدليين، وعينيه الصغيرتين الماكرتين، ولكن لم يكن له حول ولا طول حينئذ.

– سأكون لك زوجاً صالحاً يا هاجر، وسأكون أباً رحيماً لأخيك

وأختك، إنكم جميعاً بحاجة إلى من يرعاكم..".

وصدقت المسكينة كلامه، وتزوجته مع أنه كان متعطلاً عن كل عمل وعالة على البطاقة الزرقاء، يقتل وقته على المقاهي بشرب الشاي والقهوة وتدخين الهيشي. وفي يوم من الأيام نشبت مشادة حامية بينه وبين زوجته هاجر، وسمعه يقول لها:

- لماذا لا تشتغلين مثل خلق الله. كل النسوان يشتغلن، ويجئن بالفلوس لأزواجهن. وترد عليه قائلة: أنا أعرف لماذا تريد الفلوس. تريدها لكيفك للحشيش والخمر، أليس كذلك؟ إذا كنت رجلاً فاشتغل أنت.

ورأى حمد يومئذ كف أبي عليان الغليظة الكريهة تهوي على وجهها، والدم يبضر من أنفها، فثارت ثائرته، وهجم الجدي على الدب يريد أن يمنعه فأحس بالكف الغليظة تلهب وجهه وبأخته تحتويه بين ذراعيها، وتتلقى عنه الضربات، وسمعه يزمجر قائلاً:

- وهذا القرد ماذا يفعل في المدرسة؟ لماذا لا يخرج منها ويشتغل ويجيب فلوس؟ على الطلاق لازم يخرج من بكره ويشتغل.

وهكذا أكرهت الأختان على الشغل في البيوت، والأخ على الشغل أجيراً

في ورشة، والويل والثبور لهم جميعاً إن لم يدفعوا أجورهم كاملة إلى الزوج الرهيب، ولم يكن معلم الورشة أقل قسوة من "أبو عليان" فكم كان يقول له، وهو يكشر عن أنيابه حين يلكزه، أو يصفعه، أو يلكمه، وتبدو أسنانه البيضاء وسط وجهه المتسخ بسواد الشغل: "دير بالك يا ولد. الصنعة ما تعلمنهاش بالساهل. أكلنا قتل واحنا قدك لما استوينا حتى تعلمناها" حاضر يا معلمي.

وعاش حمد بضع سنوات بين جحيمي المعلم وأبي عليان، ولكنه كان ينعم خلالها بأحلام أمل كبير أنه سيكبر ويصبح رجلاً، وسيأتي اليوم الذي لن يسمح فيه لا لهذا ولا لذاك أن يمد إليه يد الأذى، سيأتي اليوم الذي يصبح فيه رجلاً ليتحرر، ويحرر شقيقتيه من ربقة القسوة والسخرة.

وبلغ حمد أَشُدَّه، وعقد العزم على أمر جليل، كتمه عن الجميع، فقد أحس بالرجولة المبكرة التي تؤهله أن يتخذ قراراته بنفسه دون أن يعتمد على أحد، وهكذا جاء اليوم الذي لم يذهب فيه صباحاً إلى الورشة، ولا عاد مساء إلى البيت، فقد سافر براً ببضع دريهمات، استطاع أن يجمعها للسفر إلى الخارج، حيث الأجور مرتفعة كما كان يسمع، فهو يعلم أن معلمه في الورشة إنما فتح ورشته بالأموال التي أتى بها من الخارج، فليسافر هو إذن ليشتغل بضع سنوات، ويعود بعدها رجلاً يقف وجها لوجه أمام "أبو

عليـان"، وينتشـل بسـاعديه القـويتين أختيـه المعـذبتين مـن بـين براثنـه، ومضت السنون سريعة أو بطيئة، وهـا هـو ذا يعـود كمـا أراد ليحقـق بقيـة حلمه، وإذا بـه يفاجأ بما لم يكن في حسبانه، لقد كانت صفعة أشد هولاً من الصفعات القديمة حين قال له أبو عليان: "علمي علمك يا ولد" وحتى الناس أشاحوا بوجوههم عنه، أو هكذا خيّل إليه. لم يبق لك يا حمد إلاّ زميلـك في الورشة عبد السميع لتسأله عنهما، لعلهما رحلتا، فهـل يشـيح هـو الآخـر بوجهـه عنه؟.

وقادته خطاه إلى حيث يقطن عبد السميع هذا، وما أن بلغ بـاب الكـوخ، وهو يقدم رجلاً ويؤخّر أخرى. حتى سمع لغطاً وضحكاً عربيداً، ينبعث من داخل الكوخ، فالتصق بالجدار، واقترب من الباب حتى حاذاه. ونظر وَجِـلاً من خلال شق في الباب المتفسخ، فرأى عبد السميع وسط زمرة مـن الشـباب، وعرف بعضهم، ورأى خوانا قد نُصِبت وسطه زجاجـة عـرق، تحـيط بهـا كؤوس بلون الحليب وصحون المازة، فأرهف أذنيه، فسمع أحدهم يقول:

- يا ولد انبسط. الدنيا رايحة..

فصاح أحدهم، وكان مخموراً، على الطـلاق ألا تبصـقوا كلكـم علـى هـذه الدنيا.

- اسمعوا يا أولاد لازم نجعل ختامها مسك..

ورد آخر مترنما – يا سيدي أمرك، أمرك ختامها مسك.

ونهض آخر، وهو يتمايل، ورفع أصبعه قائلاً:

- سيداتي سادتي. أنا أقترح هاجر وأختها هنية. كويس ورخيص، وهبت عاصفة أخرى من الضحك والموافقة، وماءت الأرض تحت قدمي حمد، وتقلصت قبضتاه، ولكنه تماسك، واستجمع شتات قواه، وأصاخ السمع:

- يا ولد ألا تخشى عمك عليان.

- هه عمك أبو عليان. يا ولد شو بهمه ما دام لا فرق عنده بين هاجر وهنية. شو بقى.

وخفض صوته، واستأنف قوله: هس. يقولون إنه عمل عملته، وهو سكران، ثم صارت عنده عادة.

- معلوم يا عمي. تفاح وخوخ أحسن من تفاح بس..

- وكمان شو بهمه ما دام اثنين يجيبوا له فلوس، يشتري بها خمرته وحشيشته.

وأمسك حمد رأسه بين يديه، كأنه يريد أن يمنعه من الانفجار، وهو يحس غليان دمه ينبض عنيفاً في شرايين صدغيه، ومضى في سبيله يترنح لا يلوي على شيء.

المجرم، إنه سيقتله، وسيشرب من دمه. السافلتان. إنه سيقتلهما أيضاً، ويشرب من دمائهما.

واختلطت في رأسه الضحكات الماجنة تدوي في هدير متصل له ألف صدى بين جنبات جمجمته. "كويس ورخيص". "تفاح وخوخ أحسن" "شو بهمه" وأحس فوق رأسه بفرقعة للألعاب النارية تتفجر شواظاً يلهب دماغه، وتراقصت أمام عينيه توهجاتها حمراء بلون الدم تكوي عينيه.

وأسرع الخطى، يقطع الأزقة والدروب، تطارده الضحكات الهادرة واللهب اللافح، وما زال يمعن في هروبه حتى تعثر بحجر كبير اعترض قدميه الضائعتين، فوقع على الأرض، وهو يلهث من شدة الإعياء، فثاب إليه بعض رشده، فألفى نفسه في الأرض الصحراء بعيداً عن الأكواخ، ومسح عن عينيه سائلاً لا يدري إن كان عرقاً أم دموعاً. ما ذنبهما هما؟ إنهما ضحيتان ماتتا من زمان، ولم تبق فيهما دماء تسفك بعد أن ولغ فيها الذئب الكبير، واستقطر كل دمائهما.

وهـب واقفاً مـن عثرتـه، وانـدفع يشـق الليـل، فابتلعتـه أمـواج ظـلام المجهول..

عمان في ١٩٦٢/١١/١٥

---

* من مجموعة "ذيول"